

البحث السادس

ذبح البقرة وضرب القتيل ببعضها

الوارد في القرآن الكريم

جوابا لسؤال ورد لنا من المحامي الشيخ أديب السراج من القدس:

في سنة ١٩٠٦ كنت مديرا لمدرسة غزة الأميرية وكان أديب أفندي السراج من القدس معلما للحساب والجغرافيا فيها وكان يلازمي ملازمة تامة ويسألني عن مسائل كثيرة دينية وغير دينية وكنت أجيبه عليها بأجوبة معقولة فكان يرتاح إليها وينسر منها وأخيرا انتقل إلى بلدة القدس معلما هناك ثم جاءني منه تحرير هذا نصه:

القدس ٢١ أيلول سنة ١٩٢٨

سيدي صاحب الفضيلة الشيخ عبد الله القيشاوي المحترم.

إنني لن أنسى تلك الاجتماعات والمذكرات ولا تلك الأسئلة التي كنت أعرضها عليكم والأجوبة التي أتلقها منكم حينما كنت بغزة معكم وإنني لا أزال أرغب في سؤالكم كما كنت أسألكم مشافهة فمن مدة يسيرة كنت في جلة مع جماعة من القدس تليت فيها آية البقرة ٧٢ التي تقول خطابا لليهود: (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) وبعد البحث من العلماء وبعد مراجعة كثير من التفاسير لم يدخل عقلي شيء منها ولم يرتح ضميري إلى أقوالهم فجننكم الآن راجيا أ، تفسروا لي هذه الآية حسب ما تفهمون وتفكرون لا حسب ما يقوله المفسرون كما تعودت ذلك منكم سابقا وسلامي عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومبعد وصول هذا السؤال عكفت على مراجعة التفاسير لأستتير بشيء من آرائهم فوجدتهم جميعا حتى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على فكرة واحدة في تفسير هذه الآية ووجدت أن تفسيرهم هذا بعيد عن العقل واما تعطيه هذه الآية من حيث تركيب كلماتها وترتيب عباراتها فصر بعد ذلك أفكر وأفكر في هذه الآية وفيما يمكن أن يفهم منها بقطع النظر عما قاله المفسرون فيها. وذات يوم في صباح باكر وأنا في فراشي أعدت التفكير في هذه الآية فألهمني الله تعالى فهما آخر غير ما ذكره المفسرون ارتاح إليه ضميري وأنشرح له صدري فنهضت من فراشي ودونت هذه الفكرة مجملة ثم فصلتها تفصيلا تاما وأرسلتها في رسالة خاصة إلى السائل المذكور وهذا نصها:

غزة في ٢٧ تشرين أول سنة ١٩٢٨

حضرة الأخ الفاضل الشيخ أديب السراج المحترم.

وصلني سؤالكم فاهتممت بهو أشغلت كل تفكيري فيه حتى هداني الله تعالى إلى فهم هذه الآية غير فهم المفسرين ثم فصلته واستدللت عليه بأدلة معقولة فلعله يكون صوابا إن شاء الله تعالى إلخ.

وهذا مفصل ما أجبته به الأستاذ المحامي المذكور.

ما قاله المفسرون في معنى هذه الآية

وفي ذبح البقرة، وعلاقتها بالقتيل

وفي مراجع ضميري اضربوه ببعضها

إن جميع المفسرين المتقدمين منهم والمتأخرين حتى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده قد جعلوا ضمير (اضربوه) في هذه الآية راجعا إلى المقتول المفهوم من قوله (وغد قتلتم نفسا) وضمير (بعضها) راجع إلى البقرة في الآية قبلها. واختلفوا في هذا البعض، فقيل هو لسان البقرة، وقيل فخذها، وقيل ذنبها، وقيل غير ذلك من بقية أجزائها.

وقالوا جميعا في معنى هذه الآية أن الله تعالى أمرهم أن يضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة التي أمرهم بذبحها في الآية السابقة فلما ضربوه ببعضها أحيا الله المقتول وقال (قتليني فلان بن فلان).

فالمفسرون قد جعلوا آية (وإذا قتلتم نفسا إلخ) مرتبطة بآية (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة إلخ) واضطروا بمقتضى تفسيرهم هذا أن يجعلوا آية (وإذ قتلتم) وإن كانت متأخرة في اللفظ عن آية ذبح البقرة؛ غلا أنها متقدمة عليها في المعنى والحكم، وقالوا لأن حادثة القتل هي السبب في الأمر بذبح البقرة حتى يضرب بعضها في القتل ليحيا ويخبر عن قتله، والسبب متقدم بالطبع على المسبب، ولذلك كانت آية القتل متقدمة في الحكم والمعنى على آية ذبح البقرة، وإن كانت متأخرة عنها في الذكر والوضع. إلى غير ذلك مما قاله المفسرون في هذا الموضوع مما لا يكاد أن يكون معقولا ولا لائقا بأن يفسر به كلام الله تعالى.

ما أفهمه في هذه الآية

وفي مراجع ضميري اضربوه ببعضها

خلافًا لقول المفسرين، وأدلتى الواضحة على ما أقول

إنني أفهم في هذه الآية فيهما آخر غير ما فهمه المفسرون جميعا وهو أن ضمير (اضربوه) ليس راجعا للمقتول كما يقولون بل هو راجع للقاتل المقتوم الذي أخرجه الله وأظهره المفهوم من قوله (والله مخرج ما كنتم تكتمون) لأنه أقرب مذكور حسب القاعدة القائلة (إن الضمير يرجع لأقرب مذكور في الكلام) وأقرب مذكور في الآية لضمير (اضربوه) هو (ما) الموصولة في قوله (ما كنتم تكتمون) أي الذي كنتم كتمتموه وأخرجه الله وأظهره. كما أن ضمير (بعضها) ليس راجعا للبقرة مما يقولون بل هو راجع للنفس المقتولة. والمعنى حينئذ: اضربوا القاتل الذي كان مكتوما وأظهره الله، أي إظهارا عاديا، ببعض النفس المقتولة. وإنما أرجعنا ضمير (بعضها) للنفس المقتولة لوجوه: -

1. لأنه ضمير مؤنث مثل الضمير المذكور في قوله (فاداراتم فيها) فيجب أن يكون مراجعهما واحد وهو (نفسا) المذكور في قوله (وإذ قتلتم نفسا فاداراتم فيها) وحينئذ فضمير (بعضها) هو وضمير (فيها) شيء واحد وهو النفس المقتولة المتدارأ فيها.
2. إن (نفسا) أقرب لضمير بعضها من البقرة، والضمير إنما يرجع لأقرب مذكور في الكلام حسب القاعدة.
3. إن البقرة لا ذكر لها أصلا في هذه الآية حتى يرجع عليها ضمير (بعضها) بل هي في آية أخرى بعيدة منها ومنقطعة عنها.
4. إن حادثة ذبح البقرة غير حادثة قتل النفس، حيث أنه مفصل بين هاتين الحادثتين بكلمة (إذ) التي تفيد أنهما حادثتان متغايرتان منقطعتان عن بعضهما لا علاقة لأحدهما بالآخرى كما هو الشأن في بقية الحوادث المذكورة في هذه السورة المفصلة بكلمة (إذ) حيث قال تعالى (بابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم إلخ) ثم قال (وإذ جنيناكم إلخ) ثم قال (وإذ فرقنا بكم البحر إلخ) على أن قال (وإذ قال موسى لقومه أن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة إلخ) ثم قال (وإذ قتلتم نفسا إلخ) على غير ذلك من هذه الآيات الكثيرة المفصلة عن بعضها بكلمة (إذ) والمتباينة تمام التباين والتي كل واحدة منها في موضوع غير موضوع الأخرى. وحينئذ فكيف يسوغ للمفسرين أن يجعلوا حادثة القتل مرتبطة بحادثة ذبح البقرة مع أنها منفصلة عنها بكلمة (إذ) كسابقتها ومع أن موضوعيهما مختلفان؟ وكيف جاز لهم

أيضا أن يقولوا أن بن هاتين الآيتين تقديما وتأخيرا مع أنه لا داعي لذلك أصلا، لو تمعنوا قليلا في معنى الآية وأرجعوا الضمائر لأقرب مذكور كما بينا.

وعليه فإذا أرجعنا ضمير (اضربوه) على القاتل الذي كتموه وأخرجه الله من طي الكتمان بإحدى وسائل الإظهار المعتادة، وأرجعنا ضمير (بعضها) إلى النفس المقتولة يكون المعنى حينئذ هكذا: (أضربوا الذي كنتم كتمتموه، وأظهره الله وهو القاتل ببعض المقتول حتى يقتل به) وحينئذ تصبح الآية ظاهرة واضحة لا إشكال فيها ولا غبار عليها ولا تقديم ولا تأخير بينها، وبين ما قبلها، وتصبح هذه الآية لا ارتباط لها بأية ذبح البقرة، بل تكون مستقلة عنها تمام الاستقلال ويكون معناها إن اليهود كانوا قد قتلوا نفسا وتدرأوا فيها أي تدافعوا وصار كل فريق منهم يدفع شبهة قتلها عن نفسه وينسبها لغيره بقصد إخفاء الجرم وكتمانه وعدم معرفة القاتل ولكن الله تعالى قد أخرجه من طي الكتمان حسب عادته من إظهار القتلة غالبا بالوسائل المعتادة في إظهارها. فلما ظهر القاتل فال لهم الله : اضربوه ببعض المقتول حتى يقتل بذلك أي اقتلوه ببعض أجزائه كيده أو رجله كما كان قد قتله ببعض أجزائه أيضا كيده أو رجله جزاء وفاقا وقصاصا مماثلا، حتى يكون القاتل قد قتل بمثل ما قتله به المقتول. وهذا هو غاية العد والإنصاف، وهذا هو القصاص الحق العادل.

وإنما قال تعالى (اضربوه) ببعضها ولم يقل (اقتلوه ببعضها) لأنه حيث ظهر بعد الكتمان أنه هو القاتل فقد أصبح أمر قتله قصاصا معلوما ومفهوما من آيات القصاص الأخرى كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر إلخ).

فهو إذن لا يحتاج إلى بيان، وإنما الذي يحتاج إلى البيان هو كيفية وشكل قتله فبينه بقوله (اضربوه ببعضها). أي ليكن قتله قصاصا بضربه ببعض المقتول كما كان المقتول قد ضرب ببعض القاتل. أي لا بشنق ولا بذبح ولا بصلب ولا بغيره.

ونظير ذلك في التعبير أن يقول الحاكم بعد معرفة القاتل وثبوت القتل عليه، واضربوه ضربا أو ارجموه رجما؛ فإنه يعلم من هذه العبارة بالبداية أن المقصود منها أن يقتل بالضرب أو بالرجم لكون أمر قتله معلوما، ولكن الحاكم يريد أن يبين شكل وكيفية قتله، فالأمر في هذه الآية كذلك، فإنه بعد ما بين الله أن القاتل قد ظهر بعد الكتمان فقد أصبح أمر قتله بالقصاص معلوما فأراد أن يبين شكل هذا القتل وكيفيته بأن يكون يضرب هذا القاتل المقتول لا بشكل آخر. على أن لفظ الضرب قد يستعمل بمعنى القتل إذا كان المقام قصاص نفس بنفس كما هنا. فيكون لفظ (اضربوه) بمعنى (اقتلوه).

وبالجملة فإن هذه الآية تفيد أن الله تعالى قد أمرهم بأن يكون قتل هذا القاتل الذي كتموه وأظهره الله ببعض المقتول أحكاما للقصاص وجزاء وفاقا، وإن كان القصاص وقتل النفس بالنفس في شريعتنا لا يشترط فيه أن يكون ببعض أجزاء المقتول. على أن ببعض مذاهب الإسلام يشترط أن يكون قتل القاتل مثل قتل المقتول من حيث الهيئة والشكل وآلية القتل أيضا استنادا على قوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وعلى قوله (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وهذا يؤيد ما نقوله هنا.

ومما هو صريح في صحة تفسيرنا وأرجحيته على تفسير المفسرين أن الآية نفسها تفيد أن الإخراج من كي الكتمان قد كان قبل الأمر بالضرب ببعضها حيث ذكرت الآية الإخراج أولا ثم رتب بينه وبين الأمر بالضرب (بغاء) الترتيب والتعقيب التي تفيد أن الضرب ببعضها إنما حصل بعد الإخراج من الكتمان. وهذا يناهض تمام المنافاة لما يقوله المفسرون من أن الضرب ببعضها قد حصل قبل الإخراج من الكتمان وأن هذا الإخراج إنما هو نتيجة لهذا الضرب وحاصل بعده بواسطته. على أنه لو كان هذا مرادا للآية لقاتل (فقلنا اضربوه ببعضها ليخرج الله بذلك ما كنتم تكتمون) ولكنها لم تقل ذلك، بل قدمت الإخراج من الكتمان على الضرب ببعضها مما يدل دلالة ظاهرة على ما قلناه. وعليه فقد أصبح تفسيرنا أقرب لصريح الآية وأوفق بمعناه.

وبهذا التفسير يظهر جليا واضحا معنى قوله تعالى في هذه الآية (كذلك يحيي الله الموتى) أي أن القصاص بهذا الشكل فيه حياة للآمة الميتة بتعدي بعضها على بعض وإفناء بعضها بعضا، فمعنى إحياء الموتى هنا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس. أي يحييها الله بمثل هذه الأحكام.

وهذا الأحياء هو على حد قوله تعالى (ومن أحيائها فكأنما أحيانا جميعا) قوله (ولكم في القصص حياة) أي أن المراد منه استبقاء الحياة. فهذه الآيات الثلاث على معنى واحد ويفسر بعضها بعضا.

على أننا لو مشينا على تفسير المفسرين لا يكون هنالك معنى لتشبيه إحياء الله للموتى في المستقبل بإحياء الميت في هذه الحادثة التي لزم لها ذبح البقر وضرب الميت بجزء منها، وهل يلزم لإحياء الموتى في الآخرة ذبح البقر وضرب الموتى بأجزائها حتى تقول الآية (كذلك يحيي الله الموتى) أي كهذه الحادثة وبمثل هذا العمل يحيي الله الموتى فيما بعد. إن إحياء المقتول ببعض أجزاء البقرة لم يكون له نظير ولا مثال من قبل، ولا هو قانون لأحياء الموتى حتى يجعله الله أساس ومقياسا ومثالا لإحيائهم فيما بعد. وعلى كل فإن كلام المفسرين في هذا الموضوع مما لا يناسب أن تفسر به آيات القرآن.

وأما قوله في هذه الآية (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أي يريكم آياته في إحياء الأمم وانتظام أحوالها باستعمالها القصص، وحرصها عليه، كقتلها القاتل وبيع المقتول (لعلكم تعقلون) فائدة العمل بأوامر الله تعالى والخضوع لأحكام شريعته. ومما ذكرناه يعلم أن تفسيري هذا معقول ومقبول ومنطبق على قواعد اللغة في إرجاع الضمائر لأقرب مذكور، ولا يلزم عليه تقديم بعض الآيات على بعض، وهو أيضا غير مرتبك المعنى كتفسير المفسرين بل هو منتظم ومتناسق ومؤيد بالآيات القرآنية الأخرى ومفسر بها، بخلاف تفسير المفسرين فإنه على العكس من ذلك كله. وقد يكون السبب في هذا أن أكثر المفسرين يحبون أن يفسروا القرآن بما هو غريب معجب ولو كان غير معقول، ثم هم يقلدون بعضهم بعضا بدون تحييص وبدون أتعاب أنفسهم وإجهاد أفكارهم في فهم الآيات بحرية الضمير، وإطلاق التفكير كأنهم يعتقدون أن فهم آيات القرآن مقصورة على المتقدمين ومحصورة في الأولين مع أن فضل الله يعطيه لم يشاء، لا فرق في ذلك بين المتقدمين والمتأخرين.